سنة ١٩٠٥

الخديو وأصحاب المقطم . الدسائس فى الأزهر أيضا . السير ارنست كاسل فى مصر . شركة للزبرجد والنحاس . لجنة الاحتفالات الخديوية . غادة تعمل على استمالة عباس . رحلة الخديو للأستانة وأوربا . وفاة الشيخ محمد عبده . الخديو وحسن عاصم باشا . بعد العودة . قاضى مصر وطلبه السفر للأستانة . منصب القبوكتخدا . تعيين مفت جديد .

الخديو وأصحاب المقطم . فى ٢١ يناير جاءنى الدكتور فارس نمر أحد أصحاب المقطم ثم قابلنى مصطفى فهمى باشا ، وطلب منى كلاهما أن أرسل إلى المطبعة الأميرية بألا تنشر إنعام الخديو على فارس نمر برتبة المتمايز . وقد صرحا لى بأن الغرض هو بقاء أصحاب المقطم أحراراً غير مقيدين بجهة معينة ، وربما كان السبب الحقيقى هو استصغار شأن هذه الرتبة . وبناء على ذلك أرسلت إلى المطبعة بعدم ذكر اسمه فى كشف اليوم .

وفى ٢٣ منه تحادث مصطفى فهمى باشا مع الخديو بشأن هذه المسألة ، فغضب سموه ؛ وعندما قابلته مساء فى قصر القبة وجدته متهيجاً لذلك ، لأنه فهم من حديث مصطفى فهمى أن المعية هى التى تسعى إلى استمالة أصحاب المقطم بالرتب ، وأن فارس نمر لا يقبل أية رتبة كانت .

ثم قال لى : « وهذا نتيجة تسرعك يا شفيق ! » فدافعت عن نفسى بأن فكرة استمالة أصحاب المقطم لم تكن فكرتى ، وأنى لم أعمل شيئاً لتنفيذها . ثم تقرر أن يتحدث أحمد شوقى أفندى مع فارس نمر فى هذا الخصوص ، على أن يتوسط مصطفى فهمى باشا

فى إزالة ما وقع فى نفس الخديو من سىء الأثر ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث ، وكان ألم الخديو لذلك عظيما .

السير ارنست كاسل فى مصر . فى ٢١ مارس أقام عباس مأدبة بسراى القبة للسير ارنست كاسل . وكان قد حضر إلى مصر مع شقيقته ؛ وفى أثناء الحفلة لفت نظرها حجر جميل من الزبرجد فى رباط رقبتى فأبدت استحسانها له ؛ وفى الغد أرسلته لها مع رسالة صغيرة قلت فيها : « أرجو ألا ترفضى قبول هذه الهدية الصغيرة التى أسعدنى الحظ بتقديمها إليك إذ رأيت أنها وقعت من نفسك وقعاً حسناً ، وأنا موقن أنها متى كانت على صدرك صار لها من الرونق ما ليس لها فى رباط عنق ؛ وقد تركت لك صياغة هذا الحجر ، على أمل أن تختارى له الصياغة التى تلائم ذوقك ، وإننى أنتهز هذه الفرصة لأعرب لك أيتها السيدة العزيزة عن أسمى شعائر إخلاصى واحترامى . » .

فجاءنى منها فى اليوم التالى رد رقيق نصه : « سيدى العزيز — لا أدرى فى الحقيقة كيف أعبر لك عن شكرى على ما أظهرته لى من العطف والمودة . وفى الواقع أنك ذهبت فى تكريمى ومجاملتى الى أبعد مدى فى إهدائك هذا الحجر الجميل الىّ ، ولقد أخجلتنى مجاملتك هذه ، وخيل الى أن إشارتى اليه هى التى أوحت اليك أن ترسله الىّ وهذا ما زاد فى خجلى ؛ على أنى أؤكد لك أن هذا العطف من جانبك وقع من نفسى أحسن موقع ، وسأحفظ هذا الحجر الجميل تذكاراً للمجاملة التى رأيتها من الذى أهداه إلىّ ، فشكراً لك ألف مرة واقبل أزكى تحياتى . » .

الدسائس فى الأزهر أيضا . ذكرت ما وصلت اليه الدسائس فى الأزهر فى العام الماضى ، ثم تلت ذلك فترة ساد فيها النظام فى الأزهر ولكنها ما لبثت حتى قامت حركة جديدة من المدرسين ، وشكوى من قانون الأزهر وشيخه وقعها المتظلمون . وكان القائمون بهذا الشغب يدخلون فى روع الآخرين أن هذه الشكوى كرغبة الخديو ؛ وفى هذه الأثناء ثارت مسألة زواج الشيخ على يوسف من كريمة السيد عبد الخالق السادات كما أسلفت ، وكان الشيخ على يوسف يدعى أن المفتى هو الذى يحرض السيد السادات ، فأراد الخديو أن ينتقم من المفتى بتغيير مجلس الادارة ، وإخراج الشيخين محمد عبده وعبد الكريم سلمان ، فلم يرق ذلك فى عين شيخ الأزهر السيد على الببلاوى ، ففكر فى تقديم استقالته ، إلا أنه قبل رجائى ورجاء المفتى فى البقاء فى منصبه ، ولكنه

علم أخيراً بأن الشيخ سليم البشرى والشيخ المنصورى توصلا إلى الحصول على مرتب فى الأوقاف العمومية دون علمه ؛ فعزم على الاستقالة لما كان يعرفه من أن هذين الشيخين هما روح الشغب فى الأزهر ؛ وحضر الى السراى فى يوم ١٥ مارس ، وقدم استقالته إلىّ بصفتى رئيس الديوانين العربى والافرنجى ، فقبلت وأرسلت اليه خطاب قبولها مشفوعاً بالشكر الرقيق .

وفى ٢١ مارس استقال الشيخ محمد عبده والشيخ عبد الكريم سلمان من عضوية مجلس الأزهر وخلف السيد البيلاوى فى مشيخة الأزهر الشيخ عبد الرحمن الشربينى فى ١٩ منه . وقد خلع عليه الخديو الخلعة المعتادة فى حفلة بسراى عابدين حضرها كثير من العلماء وذلك فى ٢٤ مارس ، وبهذه المناسبة ألقى الخديو كلمة قال فيها : « إن الجامع الأزهر قد أسس وشيد على أن يكون مدرسة دينية تنشر علوم الدين الحنيف فى مصر وجميع الأقطار الاسلامية ؛ وأول شىء أطلبه أنا وحكومتى أن يكون الهدوء سائداً فى الأزهر الشريف ، والشغب بعيداً عنه ، فلا يشتغل علماؤه وطلبته إلا بتلقى العلوم الدينية النافعة البعيدة عن زيغ العقائد وشغب الأفكار ، لأنه هو مدرسة دينية قبل كل شىء . » ثم قال : « وقد قبلت استقالة الشيخ البيلاوى لأنى منذ اثنتى عشرة سنة أسير على قاعدة قبول استقالة كل من يقدم لى استقالته . وقد أسندت وظيفة مشيخة الأزهر للأستاذ الشيخ الشربينى المعترف له من جميع الطبقات ؛ أزهريين وغيرهم ؛ بالعلم والتقوى والصلاح ، وأطلب منكم أيها العلماء أن تكونوا بعيدين دائماً عن الشغب وأن تحثوا إخوانكم والطلبة على ذلك . » وهكذا فشلت الخطوة الأولى لاصلاح الأزهر .

شركة للزبرجد والنحاس . فى ١٤ فبراير عقد بناء على الأمر الخديوى اتفاق بين مسيو شارل هكسيوس وعبد الرحمن كامى بك من أعيان السويس وشريكه حنا عنصره اللذين كانا يبحثان عن المعادن فى جزر البحر الأحمر وفى طورسينا ؛ والغرض من هذا الاتفاق أن ينصرف عبد الرحمن كامى بك وشريكه الى شراء اللؤلؤ والأحجار الكريمة ويرسلانها الى هكسيوس فى جنيف ، ليبيعها على أن يقسم الربح مناصفة بين الفريقين شهراً فشهراً . وقد جعلت مدة هذا الاتفاق خمس سنوات وعهد الىّ فى حفظ العقد الخاص به . وكذلك وقع بين الطرفين اتفاق آخر مؤداه ، أن يتعهد عبد الرحمن كامى بك وحنا عنصره لمسيو شارل هكسيوس بأن يرشداه الى الأماكن التى وجدا فيها مناجم نحاس من النوعين الأصفر والأحمر ، على أن يفحص مسيو هكسيوس هذه المناجم

ويتصرف فيها بما يراه ملائماً بحيث يتولى هو بنفسه طلب امتياز باستخراج المعدن والبحث عنه، ويكون له أن يستثمره هو بنفسه أو بواسطة شركة يؤلفها لهذا الغرض، ويكون لعبد الرحمن بك وحنا عنصره ثلاثون فى المائة من الأرباح الصافية، بشرط أن يقوما بالرحلات التى يستلزمها العمل، ويقدما إلى هكسيوس كل ما يجدانه من القطع المعدنية فى خلال مدة الاتفاق مهما كان نوعها، تاركين له الحرية فى استثمار الأرض التى توجد فيها المعادن، وألا يعقدا اتفاقاً آخر مع سواه قبل مضى خمس سنوات.

وعهد إلىّ كذلك فى حفظ العقد المحرر بينهما، والحكم فيما يشجر بين الطرفين من خلاف. وبعد ذلك أرسل إلىّ عبد الرحمن كامى بك رسالة عن نتيجة مباحثه وخريطة عن الأمكنة المرغوبة، وبعض نماذج من النحاس فأرسلتها لمسيو هكسيوس فى جنيف؛ ثم جاءتنى رسائل أخرى من كامى بك بها تفصيلات عن الأحجار التى وجدها، وذكر لى أيضاً أنه علم أن جماعة من الانجليز ذهبوا إلى الطور للبحث عن المعادن، مزودين بجميع التوصيات والتسهيلات. ولما علم الخديو بذلك، قال إن هذه التوصيات هى من صنائع الانجليز فى مصر. ولم يستطع أن يقدم إليه التوصيات التى طلبها نظراً لوجود الانجليز المشار إليهم.

لجنة الاحتفالات الخديوية. ألفت فى القاهرة لجنة للاحتفال بالخديو فى أعياده وعند سفره واستقباله، وأخرى كذلك فى الاسكندرية. فلما سافر الخديو فى هذا العام إلى الثغر فى أول مايو استقبلته اللجنة هناك بحفاوة كبيرة فشكر سموه أعضاءها شفوياً ثم أمر بارسال كتاب لهم بشكره.

ولما كانت لجنة القاهرة هى صاحبة الفكرة، ولم تنل هذا الشرف والعناية من جانب سموه، فقد تذمر أعضاؤها وتحدث بعضهم أمام الشيخ على يوسف بذلك، فبعث برسالة لسموه يعلمه فيها بذلك وإلى أن لجنة القاهرة قد تفتر عزيمتها إذا لم تنل ما تستحقه من الرعاية.

وقد أجاب عباس على ملاحظة الشيخ على يوسف فكتبت المعية إلى اللجنة خطاباً رقيقاً.

غادة تعمل على استمالة عباس. كانت مدام الكسندرا أفيرينو ملتيادى، وهى سيدة يونانية متمصرة، تصدر مجلة «أنيس الجليس» بالاسكندرية، وقد حاولت الزلفى بجمالها عند الخديو مراراً، وحامت حوله سنوات، ولكنه غض النظر عنها فأرسلت

لسموه الرسالتين التاليتين ؛ الأولى بتاريخ ١٧ مايو نصها : « لقد تعودت أن أفتتح كتابى بالثناء والدعاء اللذين لا أبرح عن تقديمهما على الدوام بالسر والجهر ، ولكن بلغنى من سعادة حسين بك زكى ما جعلنى أن أفتتح كتابى بالشكوى والاسترحام بشأن تلك المقابلة التى ضاق فى التماسها صدرى وذهب كل صبرى ؛ وحقاً إنه ليست الصاعقة تنقض علىّ فتريحنى بأشد عندى من الخبر الذى رواه لى حسين بك بشأن تأجيل تلك المقابلة إلى بعد عودة مولاى المعبود بالسلامة من رحلته المباركة وذلك لكثرة شغفى بها واضطرارى اليها وطول انتظارى إياها ، إلى أبعد مما يتحمله فؤادى وأكثر مما تطيقه نفسى ، مع أننى أعهد ذاتى ملتمسة تلك المقابلة من سيدى الرحيم الشفيق ، فضلا عن أن سموه لا يعدم على كل حال فرصة لذلك ، لأن الفرص تحت أمره وطوع يديه . وقد آن أن يكون لى حق فى إحداها بما ينفق جبراً لخاطرى الكسير وإجابة لالتماسى الذى طال عليه الأمد ونفد معه الصبر . آه يامولاى من يصف الآلام التى تحرق فؤادى واليأس المستحوذ علىّ ؛ أشعر بأنى مدفوعة بيد القضاء إلى وهدة الشقاء ومنها الى وهدة الفناء ؛ وإن حسين بك لو كان يروى لسموه ما شهده من قلقى وسوء حالى حين بلغنى ذاك الخبر بالتأجيل ، لتيقن ما ينطوى عليه فؤادى وعرف مبلغ ما أنا فيه من التلهف الشديد لتلك المقابلة السنية التى هى طوع إرادة مولاى فى كل حين يريدها فيه ، وفى أى مكان يعينه لها ؛ وإننى لقد أكثرت من إظهار الأسى والحزن مضطرة بسبب ما يعلمه مولاى ، فلعل كرمه يريحنى من عناء المدة الطويلة المستقبلة فقد كفانى ما قاسيت من أطول منها قبلا ، وعسى أن يكون هذا الرجاء كأنه آخر اليأس المتصل بأول النجاح ، وتكون تلك المقابلة أتعلل بها مدة تلك الرحلة . ولقد عهدت مولاى يمنح السعادة لكل من يطلبها منه ، ولهذا صرت فى جانب الأمل الكبير بأن هذه التعيسة المخلصة تنال تلك السعادة التى صارت تستحقها بكثرة ما بذلت لها من الصبر الوافر والقلق الطويل ، ولا شك أن كرم مولاى وانعطافه يكونان ضامنين لهذا الأمل إذ هو بعد الله على كل شىء قدير وبكل دعاء من هذه المخلصة جدير .

عبدة سموكم التعيسة
الكسندرا أفيرينو »

الاسكندرية فى ١٧ مايو سنة ١٩٠٥

وهذا هو نص الرسالة الثانية وتاريخها ٢٣ مايو :

« ولىّ نعمتى ومعبودى — أفتتح كتابى بتقديم واجب الاخلاص والتكريم مع الدعاء لله تعالى بأن تكون السلامة مرافقة لمولاى فى رحلته السعيدة باذن الله ورجوعه المبارك . وبعد فقد تقابلت مع سعادة حسين زكى بك فوجدت من رقة حديثه ما اتخذته

كنسخة من حديث مولاى ورقته ولطفه ، حتى ابتهج بذلك فؤادى المضطرب ، وسرّ خاطرى القلق ، وانتعش أملى الذابل ، ولا سيا بعد حرمانى من تلك المقابلة التى كنت أنتظرها انتظار الأرض العطشانة لندى الصباح ؛ ولكننى أسلى نفسى عن كل ذلك بسلامة مولاى ، وأعزّيها بأننى قد صبرت عدة سنوات فلأصبر عدة أشهر ، وإن كانت علىّ أطول من سنين ، حتى يمن الله ويعطف المولى المحبوب على عبدته التعيسة ...
ثم إننى مرسلة مع سعادة حسين بك الرواية التى علم سيدى بها ، وقد كتبتها بخط يدى لتكون كأنها عيون تنظر إليه بالنيابة عنى ، ولعل مولاى يشرفنى بتلاوتها فى أثناء رحلته السعيدة وأوقات فراغه ، فيجد فيها لأول وهلة ما ينطوى عليه مضمونها من حكاية حال « أميليا » التى أرجو أن تكون عاقبتى شبه عاقبتها مع ذاك الأمير ، كما أن مولاى يدرك بلا شك تلك العواطف والوجدانات التى أملت علىّ تلك الرواية ، وعباراتها المؤثرة ، مما كنت فيها لسان حال نفسى ؛ فعسى أن تصادف هذه الرواية من عند مولاى ما رجوته من وضعها فى هذا القالب ، الذى صورت فيه حالتى تصويراً تاماً بشخص أميليا مع ذاك الأمير ، بل غاية ما أرجوه قبولها وتشريفها بالنظر العالى فان ذلك حسبى وكفى .

ثم إننى قد تعودت رجاء مولاى على الدوام فلا عدمته مرجواً ولا عدمنى راجية فضله ، وسائلة إسعافه ومعونته ؛ وذلك أن لى سوقاً فى الرمل وقطعة أرض بجانبه وقد أخذ الخواجا مانولى زرفودا كى بمعاكستى فيها معاكسة تفضى إلى الضرر بى ضرراً لا يريد وقوعه مولاى بهذه المخلصة ، وذلك أن الخواجا زرفودا كى يريد أخذ قطعة الأرض بالشفعة ؛ لذلك ألتمس من جنابه العالى إصدار إشارة منه بالايعاز إليه بأن يمتنع عن أخذ قطعة الأرض بالشفعة ، وعن معاكسة السوق ؛ لأن أقل إشارة من مولاى يكون منها كل النفع لى ، ومنع الضرر عنى . وإننى فى الختام أكرر شدة أسفى لفراق سيدى وغيابه ، وحرمانى من طلعته السنية ؛ بل وجوده فى هذا الثغر الذى كنت مؤتنسة معه بظله الظليل ، وقربه المؤنس ولكننى أفرج أسفى هذا بالصبر لحين رجوعه السعيد ، سائلة المولى أن يشمل مولاى بعنايته العميمة ، وأن يجعله تحت حراسته أينما حل وسار ، كما أسأله أن يرينى طلعته المباركة وهو على ما أحب وأشتهى من العافية الدائمة ، والسلامة الملازمة باذن الله ودعاء هذه العابدة المخلصة التى ترجوه ألا ينساها كما أنها لا تنساه إلى الأبد .

عبدة سموكم الطائعة
« الكسندرا أفيرينو »

الاسكندرية فى ٢٣ مايو سنة ١٩٠٥

ولكن مدام أفيرينو رغم هذه المساعى المتكررة لم تفز من الخديو بطائل .

رحلة الخديو إلى الاستانة وأوربا . فى ٢٥ مايو غادر الخديو المياه المصرية إلى الاستانة مودعاً كالعادة . ولم أكن بمعيته هذا العام لأن سموه أراد إبقائى فى مصر لأكون قريباً من النظار لما عسى أن يطلبوه من المعلومات . وكان محمد عزت بك رئيس القلم التركى ممن رافقوا جنابه ؛ فوصل سموه إلى الاستانة فى ٢٩ مايو واستقبل فيها بحفاوة ولم يمكث بها إلا مدة وجيزة ثم برحها فى ٣ يونيو إلى فينا .

وفى ١٣ يونيو، وردت لى رسالة من عزت بك أخبرنى فيها أن الخديو كان مسروراً من الاستقبال والوداع بالاستانة .

شكوى البرنسيس زبيدة لملك الانجليز : وقد سافر الخديو بعد ذلك إلى انجلترا فبقى فيها خمسة أيام كان فيها محل حفاوة وإكرام من جانب ملك بريطانيا والأمراء الانجليز والرجال الرسميين ، وأقيمت له عدة مآدب . وفى إحداها ، وكانت بسراى وندسور ، وقع ما كدر سموه ، وجاءنى تفصيل ذلك برسالة من الشيخ محمد عثمان أحد المرافقين للخديو بتاريخ ٢٧ يونيو ملخصها:


البرنسيس زبيدة هانم

أن الجناب العالى بينما كان فى ضيافة ملك الانجليز فى وندسور ، إذ جاءت له شكوى من البرنسيس زبيدة هانم ضده ، مدعية أنه لم يحترم اتفاقاً حصل بينه وبينها بخصوص ترتيب ثلاثة آلاف جنيه لها سنوياً ، فتكدر سموه من ذلك ؛ وأرسل يأمرنى أن أتقابل مع البرنسيس ومع شاكر باشا قرينها ، وأتوصل بكل حيلة إلى أخذ كتابة من البرنسيس بأن ما كتبته للملك ليس شكاية ، بل استرحاماً ليتوسط لدى الخديو فى إجابة رجائها ، وبعد الحصول على الكتابة المذكورة يجب أن أتوجه إلى شاكر باشا وأسمعه كلاماً قاسياً مراً فى هذا الموضوع ، لأن ما حدث من البرنسيس بعيد عن الآداب والتربية ، وكان عليه أن ينصحها بعدم الاقدام على هذا العمل الشنيع ؛ وقال لى إن الخديو ينتظر الرد بمجرد وصول هذه الرسالة .

وعندما وصلتنى فى ٣ يوليو كانت البرنسيس وشاكر باشا قد سافرا إلى كارلسباد، فأرسلت بذلك برقية للخديو، وأشرت بأن يأمر دومرتينو باشا الموجود بكارلسباد أن يحصل على الكتابة المطلوبة.

وكان الغرض من ذلك أن تعرض هذه الكتابة على ملك الانجليز حتى يعلم عدم أحقية البرنسيس فيما ادعته على الخديو.

وفى ٢٩ اكتوبر عاد اللورد كرومر إلى مصر من الخارج؛ وكان الخديو فى الاسكندرية فأرسل اللورد برقية يعلم سموه برجوعه؛ فأجابه ببرقية لطيفة هنأه فيها بسلامة الوصول. ولكنه لما قابل الخديو فى أول يوم من رمضان، لم يهنئه كالعادة، بل وجه إليه انتقاداً مراً فى مسألة البرنسيس زبيدة، فاستاء الخديو أيما استياء لهذه المقابلة الجافة.

وقد تحدثت مع بطرس باشا فى شأن هذه المقابلة يوم ١٠ نوفمبر واستطرد بنا الحديث، فذكر لى أنه عندما أرسلت البرنسيس شكايتها لملك الانجليز أمر باحالتها إلى كرومر فرد طاعناً على الخديو بأن سموه يتدخل لدى القضاء الشرعى فى المسائل الشرعية، ويحصل على ما يريد من الأغراض.

وفى ١١ نوفمبر تقابلت مع المستشار المالى فطلب منى أن أعرض على الخديو تخصيص مبلغ مائتى جنيه معاشاً شهرياً للبرنسيس وأن يعطيها مبلغ ألف جنيه مصاريف المحامى عنها، وقد تم ذلك.

وفاة الشيخ محمد عبده. كان الشيخ محمد عبده مريضاً منذ عدة أشهر، وكان قد أزمع السفر للاستشفاء فى الخارج، ولكن رؤى أن صحته لا تساعده على السفر، فمكث بالاسكندرية يغالب المرض ويغالبه، ويزوره العظماء والكبراء والعلماء، ويعنى به الكثير من البرنسات حتى أن بعضهم أرسل طبيبه الخاص لعلاجه.

وفى ١١ يوليو فاضت روحه إلى بارئها، وقد شهدت تشييع جثمانه إلى مقره الأخير فى مشهد حافل وموكب جليل.

وكتبت الصحف فصولا ضافية فى رثائه، منوهة بذكره ورفيع خلاله وأعماله.

عتب الخديو: وقد كان سيرى فى جنازته سبباً فى غضب الخديو فأرسل إلىّ رسالة أثبتها لما فيها من دلالة ومغزى: « كان الجناب العالى يظن أنكم تحافظون على تنفيذ

رغباته السنية غاية المحافظة ، وكان يعلم أنكم تقدرون أوامره العالية حق قدرها ، وكان يعتقد أنكم لا تخطون خطوة إلا فى سبيل رضاه وبأمره الكريم ، وكان يتيقن أنكم تكونون على من رغب عنه ومع من رغب فيه ، ولكن قدّر فكان.

قلتم فى جوابكم الأخير إن المفتى مكث أربعة أيام كوامل من يوم الجمعة ٧ الجارى (يوليو) إلى يوم الثلاثاء ١١ منه والروح تنازعه وهو ينازعها إلى أن غلبته فتركته أى أنكم كنتم متوقعين له حصول الأمر آناً بعد آخر خلال هذه المدة ، بل على ما بلغنا أن أقاربه حتى الحكومة جهزت له مايلزم لتشييع جنازته قبل موته بيومين . وسعادتكم على ما أنتم عليه من معرفة الحقيقة والحالة ، فلم لم تستفهموا باشارة برقية عما يلزم وقت أن تبلغ الروح الحلقوم . هذا أمر واجب عليكم كان اللازم أن توجهوا فكركم اليه قبل كل شيء ولكنه يا للأسف فاتكم .

علمتم بموته فكان من الضرورى أن تعلموا أيضاً بأنه سترد اليكم تعليمات بخصوص ذلك الحادث ، وما كنتم تبرحون السراى ولا إلى منزلكم حتى تأتى أوامر الخديو اللازم اتباعها .

أخبر الجناب العالى أطال الله بقاءه باشارة برقية عن هذا الحادث ، فما معنى ذلك ؟ معناه أن ما الذى يعمل فى هذه الظروف . وتعتقدون أن الجناب العالى لابد وأن يصدر أوامره بما يعمل إزاء هذا الأمر فاذا أصدرت بعمل شيء فقوموا بتنفيذه ، وإن وردت بدونه فاعلموا أن الأمر مهمل « الجنازة حارة والميت كلب ؟ » فلا تعملوا شيئاً .

يظهر ، والله أعلم ، أنكم أردتم بالسير وراء نعشه المجاملة بعد الموت وهو على ما تعهدونه عدو الله وعدو النبى وعدو الدين وعدو الأمير وعدو العلماء وعدو المسلمين وعدو أهله ، بل وعدو نفسه ؛ فلم هذه المجاملة ؟

صدرت لكم أوامر بما يعمل ، فلم لم تبذلوا جهدكم فى تنفيذها ولم لم تسعوا وراء سريان مفعولها حتى بذلك تكونون أديتم ما فرضه عليكم الاخلاص ؟

قلتم إن الأوامر وردت والجثة بين مصر والاسكندرية فلم يمكن تنفيذها بالثغر ولكنها نفذت بالقاهرة ، فأين ذلك التنفيذ وقد سار فى الجنازة القاضى والشيخ حسونة وغيرهم .

قلتم فى جوابكم إنكم منعتم الشيخ على يوسف من كثرة الاطناب ، والمدح فما فائدة ذلك وأنتم أول من يعلم أن مثل ذلك ألفاظ سيالة تنقضى بمجرد النطق فلا أثر

لها ، لكن تنفيذ الأوامر هو الذى يترتب عليه المقصود . على أن المؤيد أفرغ جعبته فى مدح الرجل فلم يبق شيئاً مما منع عنه ، ولو فرضنا أن المؤيد لم يذكر شيئاً للرجل ، فهناك جرائد أخرى لا يمكن منعها تقوم بالاطناب والمدح ، وقد قامت فعلا والأوامر العالية على خلاف ذلك . سعادة أحمد زكى باشا موجود عندكم فلم لم تستشيروه ؟ ألم تعلموا سبب امتناعه عن تشييع الجنازة ؟ ألم تعتقدوا ما كان عليه المفتى من العداء والمعاكسة للدين وأهله وأنصاره ؟ ولكنه أمر فات والرجل مات وغير ممكن رد ما قد فعل . » .

وفى طى الرسالة السابقة ملحق هذا نصه : « ترون طىّ هذا قصيدة رثاء قالها أحد مستخدمى ديوان الأوقاف العمومية وقد طبعت أيضاً بمطبعة الديوان المذكور ، والجناب يحب أن يعرف إن كانت مطبعة الديوان جعلت لأعمال المصلحة فقط أو لها ولغيرها أو لغيرها فقط . فاستدعوا عبد الحليم عاصم باشا عندكم واستفهموا منه هذه الاستفهامات واسألوه إن كان ذلك الشاعر المطبوع طبع هذا الرثاء بأمر من الباشا أو بغير علمه ، فاذا كان بغير علمه ، فكيف يقع ذلك وسعادته يشرف على كليات وجزئيات هذا الديوان ؟ وإن كانت طبعت بأمره ، فكيف يكون ذلك وصاحب الأمر موجود ؟ وبالجملة فالمطلوب كتابة تقرير مسهب عن تفصيل هذه المسألة ويكون ممضى بامضاء سعادته وإمضاء سعادتكم ، ولا يمنعكم ذلك من تعليق ملحوظاتكم وأرسلوا جميع ذلك إلى الجناب العالى ليطلع عليه فيرى رأيه فيه . » .

الخديو وحسن عاصم باشا . وقد كان حسن عاصم باشا من الذين اهتموا بوفاة المرحوم الشيخ محمد عبده وساروا فى مشهده ، وعملوا على الاحتفال بتأبينه ، مما زاد فى حنق الخديو عليه . فأرسل لى سموه بامضاء محمد عثمان ما يأتى بتاريخ ٢٣ أغسطس : « اجمعوا لديكم حسين محرم باشا ويوسف ضيا باشا وراشد بك باشكاتب الخاصة وسعادة احمد خيرى باشا وعند اجتماعهم خاطبوا خيرى باشا بما يلى :

« إن الجناب العالى فى غاية العجب والاستغراب من جهة اهتمامكم بأشغاله الخصوصية والعمومية ، وميلكم إلى جنابه الرفيع وإظهار إخلاصكم لسدته السنية ومحبتكم الذاتية ، لأنه لا معنى لذلك مع ما أنتم عليه من كثرة اجتماعكم فى مجالس أناس مفسدين مثل حسن عاصم (الذى سبق إقالته) ، فهل لكم علاقة كبيرة تجارية أو سياسية مع أصحاب هذه الجمعية ؟ فاذا كان الأمر كذلك فالجناب العالى لا يرى مانعاً من انفصالكم عن شرف خدمته واشتغالكم مع الشركة بكل جهدكم وكمال حريتكم مع أعضائها المحترمين .

وسبب إرسال هذه المذكرة بهذا الشكل هو عدم علم الجناب العالى بوجود أحد من الموظفين الأكابر الحائزين للرتب والنياشين والميداليات والوظائف السامية ، الحاصلين عليها سعادتكم ، يسلك هــذا المسلك الذى يأباه الدين والذمة وتتبرأ منه الانسانية والمروءة .

أما مذكرات سعادته ــ التى أرسلها وعرضت ــ فلم يرد الجناب العالى تلاوتها ولا النظر إليها لأنه حفظه الله يعلم أنها محشوة بالنفاق والتملق ، وليست صادرة عن إخلاص ومحبة كما يزعم سعادته ، ولذلك ضرب بها عرض الحائط ، وعليه فنبهوا على سعادته بعدم إرسال مذكرات ولا خلافها للجناب العالى حتى يشرف سموه ثغر الاسكندرية أو عاصمة ملكه .

ثم أفهموه أن الجناب العالى لم يرد بجمعه هذه الذوات المتلوة أمامهم هذه المذكرة ، إلا ليظهر لهم أنه لا تخفى عليه خافية من أعمال كبيرهم وصغيرهم ، وأنه يعلم المنافق منهم من المخلص ، وأنه يجازى من يخالف الرغبة السنية ويحيد عن الطريق السوى . بذلك كله صدرت الارادة السنية . »

وقد جمعت هؤلاء المذكورة أسماؤهم وتلوت عليهم الرسالة المتقدمة وتقرر أن يكتبوا تقريراً باخلاصهم للجناب العالى ، وأنهم يتبرأون مما يذكره عنهم الدساسون ؛ وقدموا إلىّ هذا التقرير فأرسلته للخديو .

بعد العودة من أوربا . عاد الخديو إلى الاسكندرية يوم ٢٧ سبتمبر وكان فى استقباله النظار ومعهم نائب المستشار المالى ؛ وقد تحدث سموه معهم فى عدة أمور تختص بسياحته ، ومن ذلك أن السلطان قال له : إنه متألم من الأرمن كثيراً ، وإنه سيقضى عليهم بعد عمــل التدبيرات اللازمة . وأضاف متهكماً : وسنرى ماذا تفعل الدول ؟

وقد جاءتنى رسالة من بطرس باشا متعجباً ، كيف أن السلطان يفضى بهذا السر إلى الخديو ، ثم يذيعه الخديو حتى للانجليز ؛ وقال الباشا إن متشل إينس تحدث مع النظار فى هذا الموضوع بعد خروجه من عند الخديو .

قاضى مصر وطلبه السفر للاستانة . فى ٢٣ اكتوبر جاءتنى برقية من مصطفى فهمى باشا هذا نصها : « أرجو أن تبلغ الجناب العالى حالا بالبرق نص الآتى :

زارنى كبير القضاة وأبلغنى أن شيخ الاسلام أرسل إليه برقية يشير عليه فيها بناء على الارادة السلطانية ، بتعيين وكيل عنه والسفر إلى الاستانة ؛ فأجبته أنه باعتبار كونه من موظفى حكومة الجناب العالى ، يجب عليه أن يتقيد بالقانون فيما يتعلق بالأجازات . وخرج من غير أن يبدى إشارة تدل على أنه ينوى العمل بنصيحتى هذه . ثم كتب إلى نظارة الحقانيـة ينبئها بأنه عازم على السفر ، وسترد الوزارة عليـه اليوم أنه يتعين عليه أن يقـدم إليها طلباً قانونياً فيما يتعلق بأجازته ؛ وحيث إن لهذه المسألة شأنها وأهميتها كما لايخفى على سموكم ولا بد أن يزور كبير القضاة سموكم قبل مغادرته القطر يوم الأربعاء القادم ، فقد بادرت إلى عرض الأمر على سموكم بتفصيلاته لتكونوا على بينة منه ؛ هذا وألفت نظر سموكم إلى مسألة تعيين وكيل لأن هذا التعيين من اختصاص حكومة سموكم وقد عاد القاضى فاسترد كتابه بناء على المساعى التى بذلتها نظارة الحقانية ووعد بأن يقدم طلباً قانونياً . »

وفعلا قدم القاضى طلباً لنظارة الحقانية يطلب أجازة عشرين يوماً . وفى ٢٤ اكتوبر قابل الخديو مستأذناً فى السفر ، وبارح الثغر إلى الاستانة . وفى ٢٠ نوفمبر أرسل يطلب مد أجازته إلى شهرين واعتمدت الحقانيـة ذلك ولـكن فى ديسمبر صدر أمر السلطان بعزله وتعيين جمال الدين افندى قاضى مكة(*) بدلا عنه ووصل القاضى الجديد إلى مصر فى ١٣ ديسمبر .

منصب القبوكتخدا . كان منصب نائب الخديوية فى تركيا لا يزال شاغراً فارسل الخديو يطلب إسناده لرشيد بك الذى سبق أن أشرنا إليه وإلى رسائله السياسية .

وفى ٢٥ اكتوبر جاءت برقية من الباشكاتب ، بأن جلالة السلطان لا يستحسن تعيين رشيد بك ، نظراً لأنه سبق له الفرار من الاستانة ؛ وإنما يرتاح لتعيين محمد بك عزت رئيس الديوان التركى ؛ ولـكن الخديو لم يوافق وكذلك لم يرغب عزت بك ، وكتب للسلطان بأن تعيين رشيد بك إنما بصفة معاون فقط للقبوكتخدا .

تعيين مفت جديد . وفى ٥ نوفمبر كلف الخديو بطرس باشا بالتوجه إلى كرومر لمحادثته فى شأن تعيين الشيخ حسونة النواوى خلفاً للشيخ عبد القادر الرافعى الذى توفى

(*) وتعين بعده يحيى افندى عبد الرحمن فاضل ثم لبيب افندى الارناؤوطي وأخيراً السيد محمد نورى افندى إلى أن ألغيت وظيفة قاضى مصر فى سنة ١٩١٤ عند نشوب الحرب الكبرى .

بعد أن مكث مفتياً يومين فقط ومات بالفالج ؛ فسأل بطرس باشا عن اسم آخر احتياطاً لكى يرشح إذا لم يقبل الشيخ حسونة ، فاختار الخديو الشيخ بكرى محمد عاشور الصدفى .

ولما قابل اللورد رضى بالشيخ حسونة ؛ وكذلك وافق مصطفى فهمى باشا بعد أن علم بموافقة كرومر ؛ ولكن المستشار المالى توقف لأن ابراهيم فؤاد باشا أخبره أنه لا يصلح للافتاء إلا الشيخ الصدفى ؛ وبهـــذا تم تعيين الشيخ الصدفى . وقد شكا مصطفى فهمى باشا بهذه المناسبة لكرومر من تدخل بطرس باشا فى مسألة ليست من اختصاصه والمقصود بهذه الشكوى أن يعلم اللورد أن الخديو لا يثق به ، لأنه مقرب لدى الانجليز .